

من العصور الوسطى

إلى

عصر الإحياء

في الفصل التالى يبدأ هذا الكتاب بالشاعر بترارك ، صاحب بوكاتشيو مؤلف قصص «الديكاميون» ، ولدا في تاريخين متقاربين (١٣١٣ و ١٣٠٤) ، ونختم دانتى البيجيرى حياته عام ١٣٢١ منفياً في رافنا ، بعيداً عن فلورنسا مسقط رأسه . دانتى حبيب المرحوم الدكتور حسن عثمان الذى قضى عمره الناضج في دراسة «دانتى» ، الروعة المفردة في الجنس الإيطالى ، كما دعاه بوكاتشيو في السيرة التى دمجها لكبير شعراء إيطاليا .

نعم ، قضى حسن عثمان نضجه في دراسة فن دانتى ، ومركزه في الأدب الإيطالى والأدب العالمى . وقام بترجمة «الكوميديا الإلهية» نثراً ، بأجزائها الثلاثة : «الجحيم» و«المطهر» ، و«الفردوس» . وكانت الترجمة هدية غالية إلى المكتبة العربية ، اتصلت بالحركة الأدبية في مطالع هذا القرن ، حين ترجم سليمان البستاني إلياذة هوميروس شعراً (١٩٠٤) وقدم لها بمقدمة حافلة ، فكرمته البلاد العربية في المشرق (ولد في لبنان عام ١٨٥٦ ، وتوفى في أمريكا

١٩٢٥). كان يمثل بلاده في مجلس المبعوثان ، وأقام في سويسرا في أثناء الحرب العالمية الأولى ، وبعد انتهائها قدم إلى مصر . في صيف ١٩٢٠ وكنت طالباً بمدرسة الطب بقصر العيني حظيت بأن ينهى صديق إلى وجوده في كازينو سان ستيفانو ، وكان صباح أحد فقصده حين كان عدد أعضاء أوركسترا الفندق يرتفع بقيادة بونومي ليقدم حفلاً سمفونياً .

وأنا في أوائل مراهقتي من المعجيين جداً بعمل البستاني (ترجمته ومقدمته) ، ومن القلائل الذين قبلوا ترجمته شعراً . ولكني أفضل اليوم في هذه الأعمال الشعرية الكبرى الدقة والسهولة في الترجمة النثرية . كنت طالباً في السنة الرابعة الثانوية (١٩١٦ - ١٩١٧) ، وكانت قراءتي لهذه الترجمة بدار الكتب السلطانية (والمصرية فيما بعد) ، إتماماً لقراءتي درامات إسكيلوس ، وسوفوكليس وأوريبيديس ، والإلياذة ترجمة الشاعر الكسند بوب .

كانت جلستي عام ١٩٢٠ مع بعض أولاد الذوات ، على مقربة من مترجم الإلياذة ، سعيداً بمشاهدة شيخ جليل ، يلبس الطربوش ، ويتكئ على شمسيته ، ولعلّي أذكر أن واحدة من عوينات نظارته كان زجاجها معطلاً بياض خفيف .

أما الدكتور حسن عثمان فكان من أقرب الناس إلى إعجابي وحيي ، على قلة فرص لقائنا ، والأغلب في مكتب عمل . وكانت طبيعته انطوائية لا يهتم إلا بعمله الكبير . وحسناً صنع فإن تكريمه في

ببلاده لم يرتفع عاليًا ، وعوضه الله خيرًا ومجدًا إذ تبوأ مكانًا عليًا بين
أقطاب الدراسات الدانتيتكية في العالم .

في ذلك الزمان البعيد كنت أحسب دانتى وبيترارك وبوكاتشيو من
رجال عصر «الرينسانس» وتنورت فيما بعد ، فهم من أهل العصر
الوسيط ، الذى تغشاه الكآبة تحت سيطرة الفقهاء ، يحضون الناس
على احتواء الحياة الدنيا ، وأن يعملوا حسابًا ليوم الحساب ، وكأنى
بهم وقد اكتفوا بنصف الحكمة السامية : «اعمل لدياك كأنك
تعيش أبدًا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا» .

كانت العصور الوسطى فى أوروبا ، تواجه فى نفْسِ عصر
«الإحياء والنهضة» فيما نصف به «الرينسانس» ، متفتح النواقد ،
وضاء الجبين ، يسعد فيه الإنسان بالانطلاق والحرية . بل كان من
القوة والفعالية فى زمانه وفى كل زمان تلاحه ، إن اعتبر فاتحة الحضارة
الحديثة .

وشيخوختى فى اعتدالها لا تتجاهل العصر الوسيط ، أو تمتهن فكر
أهله ، وقد عارض المؤرخون المحدثون فى وصف الحقبة السابقة على
الرينسانس «بعصر الظلام» فلقد تغذى أهله بالأدب اللاتينى ، وسن
الحق أن نقول بأن الراهبات فى إبانته كنَّ يقرأن شعر «أوفيد» مهذبًا .

وكان «أيلار» واحدًا من فلاسفة العصر الوسيط ، أى
الإسكولائيين ، قد حاول التخلُّص من تزمّت الفقهاء ، فلم يفلح ،

وكان التابعون لفلسفة ابن رشد في عقلانيّتها متهمين بالهرطقة .

أما العلميون فلم يكونوا على بصيرة تامة بما تدارسوه في ترجحات
لاتينية قام بها علماء اليهود لنصوص الفلسفة اليونانية ، وتعليق
الشرح المسلمين ، وهوامشهم عليها . وحاولت « الفيزيكا » الحياة في
خلية الراهب روجريكون ، فاضطهده أقرانه ، لأنه يزعم امتلاك
كمّ من المعارف والعلوم بما لا يتفق وتواضع الإنسان ، وبخاصة
تواضع الرهبان (كذا !!) وقصارى الأمر ، كان أهل القرون
الوسطى مستغرقين في شئون الآخرة تحت سيطرة شيوخهم .

والشاعر پترارك أول من ابتدع وسيلة جديدة في طريق المعرفة ،
هى التى فتحت باب « الهيومانية » . ففي تعاليم پترارك بدء اكتشاف
الإنسان والعالم . والهيومانية هى التقدير الصحيح لكرامة الإنسان في
أنه مخلوق عاقل ذو إرادة ، وإحساس . وجد على الأرض
ليستخدمها ويتمتع بخيراتنا .

نما عقل الإيطاليين في ذلك الزمان بالنسبة لبقية الأوروبيين ،
نُبّههم پترارك إلى دراسة أدب اللاتين ، وإلى أهمية الاعتناء والإقبال
على آداب الإغريق .

وتابع بوكاتشيو تلك الدعوة بنثره المليء بخفة الروح ، ولطف
الدعابة ، وموهبة القصّاص . كما عاد إلى فلورنسا رهط من أهلها بعد
زيارة بيزنطة ، قبل سقوطها في أيدي العثمانيين . فشجعوا على

الاهتمام بحضارة أهل اليونان . وعادوا بما جمعه من مخطوطات
قدماء الإغريق .

وجاء في نبوة رئيس دير : « مضى حكم الآب ، وينقضى في
عصرنا حكم الابن . أما حكم الروح ، فهو على وشك الظهور » .
كلام رأى فيه بعض الناس بشيرًا بعصر الإحياء أو عودة الروح .

كان الإمبراطور فريديريك الثاني من أسرة الهوهنشتاوفن ، ومن
أتباع الحضارة العربية يشجع الثقافة اللبرالية ، وبحكم بتعديل نظام
المجتمع على أساس علماني ، وكأنه بهذا قدم صورة مسبقة لعصر
الرينسانس .

ولكن جهوده في هذا السبيل ضاعت سدى أمام موقف العداء
الذي اتخذته الإكليريوس ضد الإمبراطور ، وإذا لم تحتل الذاكرة ،
فإن فريديريك فون هوهنشتاوفن ، كان العاهل الصليبي الذي عقد
صلحًا مشهورًا مع صلاح الدين الأيوبي ، في الأراضي المقدسة .
وكان تعليق البابا على هذا السلوك : « المنتظر من الصليبي أن
يحارب ، لا أن يعقد صلحًا غير وارد » .

واضطر فريديريك فيما بعد إلى التسليم ، ولم ينفعه ذلك . فقد
وضعه الشاعر دانتي في قرار الجحيم . .

ودانتي في « الكوميديا الإلهية » - جوهرة الأدب الإيطالي - جاء
موضوعها من صميم التعاليم والكتب الدينية ، و « الفردوس » فيها

ملئى بالرموز الباطنية . ومع ذلك اختار كبير شعراء اللاتين ، فرجيل الوثنى ليكون دليله فى مسيرة الجحيم .

وأخر تلك النوافذ المفتحة فى العصر الوسيط على عصر النهضة كشفه السر المغلق فى دير «بويرون» من أعمال بافاريا . ولم يعرف السر . إلا فى القرن التاسع عشر ، عندما اكتشفت أشعار لشباب الرهبان ، بعنوان «كارمينا بورانا» (أغاني بويرون) ، وجلها خمريات وغراميات شباب عابث ، فرّج عن نفسه ، ومتّع شبابه ، بارتباد ألحان ، ندوة الشيطان .

استخدم المؤرخ البريطانى سيموندز (فى نهايات القرن الماضى ومطالع الحاضر) مصطلح «إحياء العلوم والمعارف» : ليقول بأن هذا «الإحياء» فى خواتيم العصور الوسطى ، كان لإرهاصًا ثم رسمًا لمسار الرينسانس . فالعنصر الفعال فى إحياء العلوم والمعارف ، هو «الهيومانية» .

«الهيومانى» فى القرن الخامس عشر كان يملك ، أويطلع على المخطوطات اللينة ، ومحاضر عن أفلاطون ، أو هوميروس ، بقراءة النص ، ثم يشرحه ويعلق عليه ، فتكشف قريحته وصوته عن أسرار القدماء . فكان الرجال والنساء من كل الطبقات يتزاحمون على الاستماع لمحاضراته ، يعجبون بمعارفه وفصاحته ، ويعيشون بهدى كلامه ، وليس من المتوقع فى هذه الظروف أن تنشأ عنها ثقافة أكاديمية .

وعلى الرغم من تلك الوسائل السطحية ، فقد أدت إلى اكتشاف جمال العالم القديم ، عالم الكلاسيكيات اللاتينية ، وبعد ذلك الآداب والفكر اليوناني .

عرفت أوروبا الغربية أفلاطون ، كما أضافت الكثير إلى معلوماتها عن النصوص الكلاسيكية . وبدأ التفكير فيها ترى عليه الأجيال القادمة . وتميزت مدرسة المؤرخين ، والكتاب في فلورنسا بوعى جديد لتواصل التاريخ بين الماضي والحاضر ، مع النظرة المتوقعة للمستقبل .

ومن خصائص العصر الجديد الكلف بالمجد الشخصي ، الأثرياء والحكام يطالبون الفنانين بتصويرهم ، أو نحت تماثيل لهم ، تخليدًا لذكراهم . والفنانون يقدرون بأن في هذا تخليدًا لأعمالهم .

تمتعت فلورنسا ، هي وجيرانها بالسلام مدى أربعين عامًا ، ومن سنة ١٤٥٤ حتى غزو الفرنسيين لإيطاليا ، في حكم وقيادة الملك شارل الثامن . وكانت حركة الهيومانية تستجمع قوة دفعها ، حتى بلغت سرعة باهرة . فعندما كان لورنزو المديثشي ، الموصوف بالأفخم ، يتولى إمارة فلورنسا ، تقدم الأدب والفن بخطى واسعة . ولتصور القارئ أن تجتمع لتلك الإمارة - وهي ذاتها التي اشتهرت بدانتي وبيترارك وبوكاتشيوميكلانجلو المصور والنحات ، ودوناتلو ، أعظم النحاتين الباكرين ، وأسماء المصورين : الراهب فيليبيلي ، وساندر بوتشلي . وتضاف إلى القائمة أسماء : ماكيافلي الكاتب

السياسى وجيتشاردينى المؤرخ ، وفثينو حامل لواء الأفلاطونية ،
والشاعر بوليتسيانو ، أنصح الفصحاء فى اللاتينية ، ولوقا ديلاً روبا
النحات ، وجيرلاندايو المصور . وكل هؤلاء أبناء فلورنسا ، ومعهم
زملائهم من خارجها ويعملون فيها : فيروكيو النحات ،
وبيروجينو ، وليوناردو دافنتشى المصوران . وكانت عبقرية الأمير
لورنزو الأفخم ، تجمع بين الشعر والموسيقى ، والحنكة السياسية . ولنا
أن نفهم ونتخيل كيف كانت فلورنسا فى ذلك الزمان عاصمة أوروبا ،
فى الفن والثقافة . .

أما العمارة ، فتركزت مطالعها فى روما ، ثم انتشرت منها فى
الدويلات الإيطالية . وما إن حل القرن السادس عشر حتى قامت
قصورها على ضفاف نهر اللوار ، بفرنسا ، وفى إنجلترا وفى أسبانيا ،
وفى ألمانيا .

انتهى عصر عمارة القلاع ، ومساكن تتحشر داخل أسوار
عالية . وقامت بدلا القصور الفسيحة ، لإمتاع ساكنيها ، اتسعت
حولها مساحات الأرض الخضراء ، حدائق غناء .

انخفض فى عهد «الإحياء والنهضة» نفوذ الإكليروس ،
لا يرهون رعاياهم بأن إرادة المراء وذكاءه ، تودى بهم حتماً إلى
الخطيئة .

وظهرت المكنات المحبوة فى طبيعة الإنسان ، وانطلقت

مواهب الرجال والنساء حرة في كل مجال ، شاعرين بقوتهم ، الفرد صانع قَدْرِهِ بذاته ، حر في عقله وروحه تحكمه كلمة «الفيرتو» التي جرى العرف الحديث على ترجمتها «بالفضيلة» . إنما في ذلك العصر كانت تعني الرجل الحقة . صاحب «الفيرتو» هو العارف بما يصنع من داخل ذاته ، في الفن ، في الأدب ، في السياسة . يُحْيِي استخدام ما يتاح له من فرص .

والهيومانيون الإيطاليون كانوا أول الأوروبيين في صفاتهم العلمانية ، اكتسبوا من الأدب ، والتاريخ الكلاسيكي . كما أكتسبهم الفصاحة ، وحسن البيان ، والقوام الإنشائي مع أناقة التعبير .

تحرك الرينسانس على أيدي النخبة ، وهذه لا تعني الطبقة العليا وحدها . فالأرستوقراطية تراعى المحدث ، والميلاد ، والبيئة الخاصة . وإيطاليو عصر الإحياء ، لم يعنوا بهذه الأمور . وعلى عكس ما يتصور ، العصر هو الذي اخترع «الجنتمان» ، ويظهر ذلك جلياً من قراءة المؤلف المشهور باسم «كتاب رجل البلاط» (الكورتيجيانو) ، تأليف كاستليوني . تكني قراءته إمعاناً لبتين القارئ كيف كانت النخبة في مجتمع النهضة ، تحرص على المعرفة الموسعة لشتى الشئون والأمور . ولم يكن العلمانيون أقل متزلة من الإكليروس ، ولا من الفرسان ، كما كان الحال في العصور الوسطى .